التشبيه في القرآن[1]

للاستاذ أحمد أحمد بدوي

— ١ —

أرى واجباً على قبل الحديث عن التشبيه فى القرآن الكريم ، أن أتحدث قليلاعن بعض نظرات للأقدمين فى هذا الباب ، لا أوافقهم عليها ، ولا أرى لها قيمة فى التقدير الفنى السليم .

فما اعتمد عليه القدماء فى عقد التشبيه العقل ، يجعلونه رابطاً بين أمرين أو مفرقاً بينهما ، وأغفلوا فى كثير من الأحيان وقع الشيء على النفس ، وشعورها به سروراً أو ألماً . وليس التشبيه فى واقع الأمر سوى إدراك ما بين أمرين من صلة فى وقعهما على النفس ، أما تبطن الأمور ، وإدراك الصلة التى تربطها بالعقل وحده ، فليس ذلك من التشبيه الفنى البليغ ، وعلى الأساس الذى أقاموه استجادوا قول ابن الرومى :

بذل الوعد للأخلاء سمحاً وأبى بعد ذاك بذل العطاء
فغدا كالخلاف يورق للعين ، ويأبى الإثمار كل الإباء

وجعلوا الجامع بين الأمرين جمال المنظر وتفاهة المخبر ، وهو جامع عقلى ، كما ترى ، لا يقوم عليه تشبيه فنى صحيح ، ذلك أن من يقف أمام شجرة الخلاف أو غيرها من الأشجار ، لا ينطبع فى نفسه عند رؤيتها سوى جمالها ونضرة ورقها وحسن أزهارها ، ولا يخطر بباله أن يكون لتلك الشجرة الوارفة الظلال أن يكون لها ثمر يجنيه أولا يكون ، ولا يقلل من قيمتها لدى رائيها ، ولا يحط من جمالها وجلالها ، ألا يكون لها بعد ذلك ثمر شهى ، فإذا كانت تفاهة المخبر تقلل من شأن الرجل ذى المنظر الأنيق وتعكس صورة منتقصة فى نفس رائيه ، فإن الشجرة لا يقلل من جمالها لدى النفس عدم إثمارها ، وبهذا اختلف الوقع لدى النفس بين المشبه والمشبه به ، ولذلك لا يعد من التشبيه الفنى المقبول .

وقبل الأقدمون من التشبيه ما عقدت الحواس الصلة بينهما ، وإن لم يكن تعقدها النفس ، فاستجادوا مثل قول الشاعر يصف بنفسجا :

ولا زوردية تزهو بزرقتها بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار فى أطراف كبريت

فليس ثمة ما يجمع بين البنفسج وعود الكبريت وقد بدأت النار تشتعل فيه ، سوى لون الزرقة التى لا تكاد تبدأ حتى تختفى فى حمرة اللهب ، وفضلا عن التفاوت بين اللونين ، فهو فى البنفسج شديد الزرقة وفى أوائل النار ضئيلها ، فضلا عن هذا التفاوت تجد الوقع النفسى شديد التباين ، فزهرة البنفسج توحى إلى النفس بالهدوء والاستسلام وفقدان المقاومة ، وربما اتخذت لذلك رمزاً للحب ، بينما أوائل النار فى أطراف الكبريت تحمل إلى النفس معنى القوة واليقظة والمهاجمة ، ولا تكاد النفس تجد بينهما رابطاً. كما استجادوا كذلك قول ابن المعتز :

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى نطير غرابا ذا قوادم جون

قال صاحب الإيضاح : « شبه ظلام الليل حين يظهر فيه ضوء الصبح بأشخاص الغربان ، ثم شرط قوادم ريشها بيضاء لأن تلك الفرق من الظلمة تقع فى حواشيها ، من حيث يلى معظم الصبح وعموده لمع نور، يتخيل منها فى العين كشكل قوادم بيض» وهكذا لم ير ابن المعتز من الدجى وضوء الصباح سوى لونيهما ، أما هذا الجلال الذى يشعر به فى الدجى ، وتلك الحياة التى يوحى بها ضوء الصبح ، والتى عبر القرآن عنها بقوله : « والصبح إذا تنفس » — فما لم يحس به شاعرنا ولم يقدره نقادنا ، وأين من جلال هذا الكون الكبير ، ذرة تطير ؟!

وقبلوا من التشبيه ما كان فيه المشبه به خيالياً ، توجد أجزاؤه فى الخارج دون صورته المركبة ، ولا أتردد فى وضع هذا التشبيه بعيداً عن دائرة الفن ، لأنه لا يحقق الهدف الفنى للتشبيه ، فكيف تلمح النفس صلة بين صورة ترى ، وصورة يجمع العقل أجزاءها من هنا وهنا ، وكيف يتخذ المتخيل مثالا لمحسوس مرئى ، وقبل الأقدمون لذلك قول الشاعر :

وكأن محمر الشقيق إذا تصوب أو تصعد
أعلام ياقوت نشرن من على رماح من زبرجد

ألا ترى أن هذه الأعلام من الياقوت ، المنشورة على رماح

---

١ — فصل من كتاب (من بلاغة القرآن) الذى يطبع الآن .

الزبرجد ، لم تزدك عمق شعور بجمر الشقيق ، بل لم ترسم لك صورته إذا كنت جاهله ، فما قيمة التشبيه إذاً وما هدفه ؟ ! وسوف أتحدث عن الآية الكريمة التي فيها هذا اللون من التشبيه لندرك سره وقيمته .

هذا ، ولن نقدر التشبيه بنفاسة عناصره ، بل بقدرته على التصوير والتأثير ، فليس تشبيه ابن المعتز للهلال حيث يقول :

أنظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

وتلمس شبه له بهذا الزورق الفضي المثقل بحمولة العنبر ، مما يرفع من شأنه ، أو ينهض بهذا التشبيه الذي لم يزدنا شعوراً بجمال الهلال ، ولا أنسا برؤيته ، ولم يزد على أن وضع لنا إلى جانب الهلال الجميل صورة شوهاء متخيلة . وأين الزورق الضخم من الهلال النحيل ، وإن شئت فوازن بين هذه الصورة التي رسمها ابن المعتز للهلال وتلك الصورة التي تعبر عن الاحساس البصري والشعر النفسي معاً حينما تحدث القرآن عن هذا الهلال ، فقال : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » فهذا العرجون القديم أقدر على تصوير القمر كما تراه العين وكما تحس به النفس أكثر من تصوير الزورق الفضي له كما سنرى .

— ٢ —

التشبيه لمح صلة بين أمرين من حيث وقعهما النفسي ، وبه يوضح الفنان شعوره نحو شيء ما ، حتى يصبح واضحاً وضوحاً وجدانياً ، وحتى يحس السامع بما أحس المتكلم به ، فهو ليس دلالة مجردة ، ولكنه دلالة فنية ، ذلك أنك تقول : ذاك رجل لا ينتفع بعلمه ، وليس فيما تقول سوى خبر مجرد عن شعورك نحو قبح هذا الرجل ، فإذا قلت إنه كالحمار يحمل أسفاراً ، فقد وصفت لنا شعورك نحوه ، ودللت على احتقارك له وسخريتك منه .

والغرض من التشبيه هو الوضوح والتأثير ، ذلك أن المتفنن يدرك ما بين الأشياء من صلات يمكن أن يستعان بها في توضيح شعوره ، فهو يلمح وضاءة ونوراً في شيء ما ، فيضيء بجانب آخر يلقي عليه ضوءاً منه ، فهو مصباح يوضح هذا الإحساس الوجداني ، ويستطيع أن ينقله إلى السامع .

ليس من أغراض التشبيه إذاً ما ذكره الأقدمون من بيان أن وجود المشبه ممكن وذلك في كل أمر غريب يمكن أن يخالف فيه ويدعى إمتناعه [1] ، وقد استشهدوا على هذا الغرض بقول المتنبي :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

وليس في هذا البيت تشبيه فني مقبول ، فليس الأثر الذي يحدثه المسك في النفس سوى الإرتياح لرائحته الذكية ، ولا يمر بالخاطر أن بعض دم الغزال ، بل إن هذا الخاطر إذا مر بالنفس قلل ذلك من قيمة المسك ومن التلذذ به ، وهذه الصورة التي جاء بها المتنبي ليوضح إحساسه نحو سمو فرد على الأنام ، ليست قوية مضيئة ، تلقي أشعتها على شعوره فتضيئه لنا ، فإن تحول بعض دم الغزال إلى مسك ليس بظاهرة قريبة مألوفة ، حتى تقرب إلى النفس ظاهرة تفوق الممدوح على الأنام ، كما أن ظاهرة تحول الممدوح غير واضحة ، ومن ذلك كله يبدو أن الرابط هنا عقلي لا نفسي وجداني .

وليس من أغراضه ما ذكره الأقدمون أيضاً من الاستطراف ، فليس تشبيه فم فيه جمر موقد ببحر من المسك موجه الذهب — تشبيهاً فنياً على هذا القياس الذي وضعناه ، فإن بحر المسك ذو الموج الذهبي ، ليس بهذا المصباح الوهاج الذي ينير الصورة ويهبها نوراً ووضوحاً .

ولما كان هدف التشبيه الإيضاح والتأثير أرى الأقدمين قد أخطئوا حينما عدوا البليغ من التشبيه ما كان بعيداً غريباً نادراً ، ولذلك عدوا قوله :

وكأن أجرام النجوم لوامعاً درر نثرن على بساط أزرق

أفضل من قول ذي الرمة :

كحلاء في برج ، صفراء في نعج [2] كأنها فضة قد مسها ذهب

« لأن الأول مما يندر وجوده دون الثاني فإن الناس أبداً يرون في الصياغات فضة قد موهت بذهب ولا يكاد يتفق أن يوجد « رقد نثرن على بساط أزرق » [3]

وذلك قلب للأوضاع ، وبعد عن مجال التشبيه الفني الذي

---

١ — الإيضاح جـ ٢٢ ص ٣٤

٢ — البرج بالتحريك أن يكون بياض العين محدقا بالسواد ، والنعج البياض الخالص . ٣ — الإيضاح ٢ : ٦٠

توضح فيه صورة قوية تبعث الحياة والقوة فى صورة أخرى بجوارها ، وبرغم أن التشبيهين السالفين حسيان أرى التشبيه الثانى أقوى وأروع ، ولست أرمى إلى أن يكون التشبيه مبتذلا ، فإن الإبتذال لا يثير النفس ، فيفقد التشبيه هدفه ، ولكن أن يكون فى قرب التشبيه ما يجعل الصورة موضحة مؤثرة كما سنرى .

— ٣ —

ليس الحس وحده هو الذى يجمع بين المشبه والمشبه به فى القرآن ، ولكنه الحس والنفس معاً ، بل إن للنفس النصيب الأكبر والحظ الأوفى .

والقرآن حين يشبه محسوساً بمحسوس يرمى أحياناً إلى رسم الصورة كما تحس بها النفس ، تجد كذلك فى قوله سبحانه يصف سفينة نوح : « وهى تجرى بهم فى موج كالجبال » ألا ترى الجبال تصور للعين هذه الأمواج الضخمة ، وتصور فى الوقت نفسه ما كان يحس به ركاب السفينة هذه وهم يشاهدون هذه الأمواج من رهبة وجلال معاً كما يحس بهما من يقف أمام شامخ الجبال . وقوله تعالى يصف الجبال يوم القيامة : « وتكون كالعهن المنفوش ١ » فالعهن المنفوش يصور أمامك منظر هذه الجبال ، وقد صارت هشة لا تتماسك أجزاؤها ، ويحمل إلى نفسك معنى خفتها ولينها . وقوله تعالى : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » فهذا القمر بهجة السماء وملك الليل ، لا يزال يتنقل فى منازله حتى يصبح بعد هذه الاستدارة المبهجة وهذا الضوء الساطع الغامر ، يبدد ظلمة الليل ، ويحيل وحشته أنساً يصبح بعد هذا كله دقيقاً نحيلاً محدوداً لا تكاد العين تنتبه إليه وكأنما هو فى السماء كوكب تائه ، لا أهمية له ، ولا عناية بأمره ، أولا ترى فى كلمة العرجون ووصفها بالقديم ما يصور لك هيئة الهلال فى آخر الشهر ، ويحمل إلى نفسك ضآلة أمره معاً ، وقوله تعالى يصف نيران يوم القيامة : « إنها ترمى بشرر كالقصر . كأنه جمالة صفر » ، فالقصر وهو الشجر الضخم والجمال الصفر توحى إلى النفس بالضخامة والرهبة معاً ، وصور لنفسك شرراً فى مثل هذا الحجم من الضخامة يطير .

١ — الصوف

ويرمى أحياناً إلى اشتراك الطرفين فى صفة محسوسة ، ولكن للنفس كذلك نصيبها فى اختيار المشبه به الذى له تلك الصفة ، وحسبى أن أورد هنا آيات ثلاثا تتبين فيها هذا الذى أشرنا إليه . فالقرآن قد شبه نساء الجنة فقال : « فيهن قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون » وقال : « وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون » ، فليس فى الياقوت والمرجان واللؤلؤ المكنون لون خصب ، وإنما هو لون صاف حى ، فيه نقاء وهدوء ، وهى أحجار كريمة تصان ويحرص عليها ، وللنساء نصيبهن من الصيانة والحرص ، وهن يتخذن من تلك الحجارة زينتهن ، فقربت بذلك الصلة واشتد الإرتباط ، أما الصلة التى تربطهن بالبيض المكنون ، فضلا عن نقاء اللون ، فهى هذا الرفق والحذر التى يجب أن تعامل به كليهما . أولا ترى فى هذا الكن أيضاً صلة تجمع بينهما ، وهكذا لا تجد الحس وحده هو الرابط والجامع ، ولكن للنفس نصيب أى نصيب . وحينا يجمع بين الطرفين المحسوسين معنى من المعانى لا يدرك بإحدى الحواس ، وقل ذلك فى القرآن الكريم الذى يعتمد فى التأثير أكثر اعتماد على حاسة البصر ، ومن القليل قوله سبحانه : « أولئك كالأنعام بل هم أضل » ، وصفته ضلال الأنعام من أبرز الصفات وأوضحها لدى النفس . وكثر فى القرآن إيضاح الأمور المعنوية بالصور المرئية المحسوسة ، تلقى عليها أشعة من الضوء وتغمرها ، فتصبح شديدة الأثر ، وها هو يمثل وهن ما اعتمد عليه المشركون من عبادتهم غير الله وهنا لن يقدم فائدة ما ، فهم يعبدون ويبذلون جهداً يظنونه مثمراً وهو لا يجدى ، توجد فى العنكبوت ذلك الحيوان الذى يتعب نفسه فى البناء ، ويبذل جهده فى التنظيم ، وهو لا يبنى سوى أوهن البيوت وأضعفها ، فقرن تلك الصورة المحسوسة إلى الأمر المعنوى ، فزادته وضوحاً وتأثيراً ، قال تعالى : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

وها هو ذا يريد أن يحدثنا عن أعمال الكفرة ، وأنها لا غناء فيها ، ولا ثمرة ترجى منها ، فهى كعدمها فوجد فى الرماد الدقيق ، لا تبقى عليه الريح العاصفة صورة تبين ذلك المدى أتم بيان وأوفاه

فقال سبحانه: « مثل الذين كفروا بربهم، أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، لا يقدرون مما كسبوا على شيء، ذلك هو الضلال البعيد ».

وليس في القرآن سوى هذين اللونين من التشبيه، تشبيه المحسوس بالمحسوس، وتشبيه المعقول بالمحسوس. أما قوله سبحانه: « إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم، طلعها كأنه رءوس الشياطين » فالذي سمح بأن يكون المشبه به خيالياً، هو ما تراكم على الخيال بمرور الزمن من أوهام رسمت في النفس رءوس الشياطين في هيئة بشعة مرعبة، وأخذت هذه الصورة يشتد رسوخها بمرور الزمن، ويقوى فعلها في النفس، حتى كأنها محسوسة ترى بالعين وتلمس باليد، فلما كانت هذه الصورة من القوة إلى هذا الحد ساغ وضعها في موضع التصوير والإيضاح، ولا نستطيع أن ننكر ما لهذه الصورة من تأثير بالغ في النفس. ومما جرى على نسق هذه الآية قوله تعالى: « فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب » فهي صورة قوية للجان تمثله شديد الحركة لا يكاد يهدأ ولا يستقر.

والتشبيه في القرآن تعود فائدته إلى المشبه، تصويراً له وتوضيحاً، ولهذا كان المشبه به دائماً أقوى من المشبه وأشد وضوحاً وهنا نقف عند قوله تعالى: « الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء، ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شيء عليم ». فقد يبدو للنظرة العجلى أن المشبه وهو نور الله أقوى من مصباح هذه المشكاة، ولكن نظرة إلى الآية الكريمة، ترى أن النور المراد هنا هو النور الذي يغمر القلب، ويشرق على الضمير، فيهدي إلى سواء السبيل، أولا ترى أن القلب ليس في حاجة إلى أكثر من هذا المصباح، يلقي عليه ضوءه فيهتدي إلى الحق، وأقوم السبل، ثم ألا ترى في اختيار هذا التشبيه إيحاء بحالة القلب وقد لفه ظلام الشك، فهو متردد قلق خائف، ثم لا يلبث نور اليقين أن يشرق عليه، فيجد الراحة والأمن والاستقرار، فهو كساري الليل يخبط في الظلام على غير هدى حتى إذا أوى إلى بيته فوجد هذا المصباح في المشكاة وجد الأمن سبيله إلى قلبه، واستقرت الطمأنينة في نفسه وشعر بالسرور يغمر فؤاده.

وإذا تأملت الآية رأيتها قد مضت تصف ضوء هذا المصباح وتتأنق في وصفه، بما يصور لك قوته وصفاءه، فهذا المصباح له زجاجة تكسب ضوءه قوة، تجعله يتلألأ كأنه كوكب له بريق الدر ولمعانه؛ أما زيت هذا المصباح فمن شجرة مباركة قد أخذت من الشمس أوفى نصيب، فصفا لذلك زيتها حتى ليكاد يضيء ولو لم تمسسه نار. ألا ترى أن هذا المصباح جدير أن يبدد ظلمات الليل، ومثله جدير أن يبدد ظلام الشك ويمزق دجى الكفر والنفاق. وقد ظهر بما ذكرناه جمال هذا التشبيه ودقته وروعته.

يتبع — **أحمد أحمد بدوي**

مدرس بكلية العلوم

تاريخ الأدب العربي

للأستاذ أحمد حسن الزيات

يؤرخ الأدب العربي من عصر الجاهلية إلى هذا العصر بأسلوب قوي، وستيعاب موجز وتحليل مفصل واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربي والآداب الأخرى

طبع اثني عشر مرة في ٥٥ صفحة
وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد